

الأوضاع الإدارية في بايلك الغرب الجزائري خلال القرن 18

أ/ دباب بومدين
جامعة عبد الحميد بن باديس / مستغانم

ملخص:

إن الموقع الاستراتيجي لبائلك الغرب الجزائري وتزايد الأطماع الإسبانية عليه والرغبة التوسعية المغربية فيه؛ جعل جل باياته يحاولون إخراج العناصر الأجنبية وفرض السيطرة على كامل البائلك لذلك اتبعوا نظام إداري خاص لم يطبق في بقية البايلاكات؛ وبالتالي تحاول هذ الدراسة بتسليط الأضواء على أهم المناصب الإدارية في بايلك الغرب وإبراز العلاقة بين الريف والمدينة.

الكلمات المفتاحية : بايلك - الغرب الجزائري - القرن 18

Abstract:

The strategic location of Pielke west of Algeria and the growing Spanish ambitions attic and desire expansionist Moroccan it; make the most of His signs are trying to take out foreign elements and impose control over the entire Albilkk so they follow a special administrative system did not apply in the rest of Albaalkat; and therefore trying Hzd study highlighting the most important administrative positions in

Pielke West and highlight the relationship between the countryside and the city.

Keywords: Pielke - West Algerian - 18th century.

مقدمة:

اختلف بايلك الغرب عن بقية البايلاكات الجزائرية خلال العهد العثماني نظرا لعدم الاستقرار لعاصمته وصبغته الحربية بسبب توتر العلاقات بين العثمانيين من جهة وبقاء الاسبان فيه حوالى ثلاثة قرون من جهة ثانية.

وخلال هذه الفترة عمل العثمانيون على كسب العناصر الدينية التي كانت تتمتع بنفوذ كبير في أوساط السكان بالمنطقة كما اوجدوا طريقة إدارية تتمثل في حكم الجزائريين بالجزائريين عن طريق التحالف مع بعض الزعامات المحلية القائمة على أساس قبلي أو ديني خاصة في الأرياف التي ظلت تعيش في عزلة عن الحكومة العثمانية، ومن هنا تتبادر الى الازهان عدة

تساؤلات: ماهي طبيعة النظام الإداري الذي اتبعه بايات الغرب الجزائري؟ كيف حافظ بايات الغرب على حكمهم رغم الاضطرابات؟ وما هي انعكاسات ذلك على العلاقة بين الريف والمدينة في بايلك الغرب الجزائري؟.

1- نشأة بايلك الغرب الجزائري :

يعود تاريخ ظهور البايك كتنظيم إداري وسياسي إلى النصف الأول من القرن السادس عشر، حيث تم تقسيم الجزائر إلى أربعة بايلكات تسهيلا للحكم العثماني؛ وقد حدث ذلك خلال حكم حسن باشا ابن خير الدين¹

إن ما يسمى بايلك الغرب هو ما يعادل بالتقريب القطاع الوهراني حاليا²، كانت رقعته الجغرافية تمتد ما بين الحدود التالية: المملكة المغربية غربا وبايلك التيطري ودار السلطان شرقا والبحر المتوسط شمالا والصحراء جنوبا³. وهناك من يعطي للمنطقة حدودا حيث يحدها واد الشلف في الشرق ووادي الملوية في الغرب والبحر المتوسط في الشمال والصحراء في الجنوب⁴

تأسس بايلك الغرب سنة 1563، فأصبحت مازونة عاصمة له وابن خديجة بايا عليه، لقد نصب حسن باشا ابن خير الدين الباي ابن خديجة نظرا لحيويته وذكاءه⁵، وقد اختار ابن خديجة مازونة كعاصمة للبايلك نتيجة موقعها حيث تتوسط القبائل ما بين مستغانم وتنس وقرية من الشلف⁶.

لقد شكّلت كل من المدن التالية عواصم وقواعد هامة، فقبل القرن الثامن عشر كانت مازونة عاصمة البايك وتلمسان قاعدته الهامة؛ ثم تغير الوضع السياسي خلال القرن الثامن عشر حيث نقلت العاصمة من مازونة إلى معسكر سنة 1701، ثم وهران في الفتح الأول سنة 1708، ثم مستغانم سنة 1732؛ بعد ذلك عاد المقر إلى معسكر سنة 1737 وأخيرا انتقل إلى وهران بعد الفتح الثاني سنة 1792⁷.

إن البايك لم يكن مجرد اجراءات تطبق على السكان، بل هو تركيبة ادارية وسياسية ترتبط بالمجتمع وتتفاعل معه بنظام محكم ودقيق، فكانت كل

بإيضية تحكم نفسها ولها إدارتها باعتبار أن الإدارة غير مركزية، من حيث المبدأ كان البايلك مقسما إلى عدد من الأوطان التي يحكمها قائد تركي أو كرغلي أو من أهل البلاد، وكل وطن يجمع عددا من القبائل التابعة لشيخوخها والذين يعينهم الباي بحضور الآغاوات وكبار الموظفين وذلك بحصولهم على الخاتم والبرنس الأحمر، وكان يحدث أحيانا أن يتكون الوطن الواحد من قبيلة كبرى على رأسها شيخ ويحمل في الوقت نفسه لقب قائد، كما كان هناك قائد واحد للوطن أو لعدد من الأوطان.

إن تسمية الوطن كانت ترجع إما إلى اسم القبيلة الكبرى أو إلى اسم الجبل أو الوادي المشهور في ذلك الوطن؛ إضافة إلى ذلك نجد الآغاليك التي يديرها القياد أو آغا، ومجموعة آغاليك يحكمها باشا أو آغا أو خليفة⁸

2- تنظيم بايلك الغرب الجزائري :

كان بايلك الغرب مقسما إلى ثلاث قيادات كبرى؛ قيادة الشرق وتشمل واد الشلف والمرتفعات المجاورة من مازونة حتى حدود دار السلطان أي إلى بوحلون حوالي خمسة عشر كيلومتر شرقي مليانة، وكانت مسيرة من طرف خليفة الباي الذي يسكن مليانة، وكان يوجد ضمنها قيادة جنبدل التي كان يتبع لها بعض القبائل⁹، أما القيادتان الأخرتان فكانتا تشملمان باقي الأقاليم وتداران من طرف قبيلتي الدواير والزمالة المخزيتين¹⁰؛ أي من عين كيال حتى مازونة، ومن البحر المتوسط حتى جنوب معسكر إلى أطراف الصحراء وبلاد اليعقوبية¹¹.

وكان لهذين القبيلتين أربع آغاوات، إثنان لكل واحدة يتناوبون الخدمة والذي يعزل يسمى خزورجيا. وكانا مجبرين على تنسيق العمل بينهما لأن السكان الواقعين تحت نظرهما متداخلين فيما بينهم وهذا بتعمد من العثمانيين، حتى إذا فكر أحدهما في التمرد أمكن إحباط مشروعه عن طريق الآخر.

لقد كان الباي صاحب السلطة السياسية الأولى على البايلك وهو المسؤول الأول أمام الحكم المركزي، وهو إما تركي أو كرغلي، يعينه الداي؛

وكانت سلطة البايات مطلقة ومهمتهم تتمثل في تسيير شؤون أقاليمهم والإشراف على القوات العسكرية وعملية جمع الضرائب من الأرياف ويسهرون على الأمن ولهم الحق في إصدار العقوبات ضد الأهالي باستثناء الأتراك الذي لا بد له من استشارة الداوي لمعاقبتهم¹² كما كان لهم الحق في مصادرة الممتلكات ويتولون قيادة الجنود في المعارك¹³.

كان البايات مطالبين بالتوجه الى الجزائر مرة كل ثلاث سنوات ليسلموا عائدات بيالكهم المسماة بالدنوش الكبرى بالإضافة الى الضرائب التي كان يرسلها كل سنة عن طريق خليفته وتسمى بالدنوش الصغرى، إضافة الى التقارير عن اوضاع المناطق الخاضعة لهم، وكان يتم في نفس الوقت تجديد تعيينهم أو عزلهم نهائيا وذلك وفق لما كان يقدمونه من العائدات والرشاوي للداوي واعوانه¹⁴.

3- الجهاز الإداري في بايلك الغرب:

كان للباي على مستوى بايلك الغرب عدد من المساعدين الذين يقومون على مستوى محلي بمهام متشابهة لتلك التي يقوم بها أعوان الداوي في العاصمة، كما لهم ألقاب ووظائف قريبة من بعضهم البعض.

الخليفة: كان يوجد في بايلك الغرب خليفتان؛ الخليفة الكبير، وخليفة الكرسي، الأول يخضع له القواد ويذهب مرتين إلى العاصمة في الربيع والخريف لحمل الدنوش، وهو يلي الباي في المرتبة وينوب عنه أثناء غيابه، ويكلف في بعض الأحيان بقيادة المحلات لاستخلاص الضرائب من القبائل بمساعدة صبايحية الباي¹⁵، ومعاقبة الثائرين وإخضاعهم ولأهميته كان يعين من طرف الداوي.

أما بالنسبة لخليفة الكرسي فيعيّنه الباي، وينوب عنه في مقر البايك فقط، لذلك كان بمثابة آغا الباي.

–الخزندار: وهو المتكفل بأمور الخزينة، وله معاونان كحاجبين؛ إضافة إلى الباش دفتر الكبير والصغير ، كما يوجد النقاد او المقتصد وهو صاحب السلطة على كل المصالح المالية والانفاق واعداد اموال الدنوش.

–آغا الدائرة: كان يعرف بعدة تسميات مثل آغا العرب أو خوجة الخيل، وينعت بالباش آغا، وهو قائد الحامية العسكرية العثمانية بمركز البايك؛ كان يعين مباشرة من طرف الداي ويوكل له مهمة تنفيذ قرار تنحية أو إعدام البايات بأمر منه، وقد عرف باييك الغرب أربعة آغاوات إثنان من قبائل الدواير وإثنان من قبائل الزمالة¹⁶

–السيارين: وهم محررو رسائل الباي؛ "باش سيار" و"سيار أوكايتو" و"سيار أتنجي" و"سيار أكانجي"، وهم وحدهم المكلفين بمراسلات الباي مع الباشا، والاتصالات الشفوية، والمسؤولين عن أسرار الدولة التي تسر إليهم ونقل الأوامر إلى مدن البايك عن طريق فرسان المخزن¹⁷

–وكيل الباي: كان مقره بالجزائر لتمثيل الباي، وتقديم سيار الباي إلى الداي وإخباره عن حالته الصحية وحالة الموظفين السامين واكتشاف الدسائس التي كانت تحاك عليه.

–البيتمالجي: كان مكلفا بالمواريث أو بالأملاك الشاغرة.

–خوجة مخزن الزرع: كان يدير ويراقب تحضير خبز الجيش، ويوزع الحبوب والخبز الضروري ويحصى الأراضي الزراعية، وجباية العشور من الأوطان عن طريق القياد ليأخذه إلى قائد العشور الذي يتولى بدوره إيصالها إلى المرسى الكبير وتسليمها إلى قائد المرسى¹⁸

–قائد الدريبة: كان مكلفا بمراقبة قصر الباي؛ والاشراف على حراسه، كان خصيًا اسودا، ويدعى آغا الطواشي.

-الترجمان: كان هناك ترجمانان: ترجمان الاتراك وترجمان العرب.

-امين السكه: ويدعى بسكهها امين.

-قايد الظليلة: وهو حامل مظلة الباي، وكان خليفة لقايد قبيلة المكااحلية¹⁹ وتعتبر المظلة هي الرمز القديم للسلطة حيث تقي رأس الباي أثناء التظاهرات الاحتفالية في اقليم البايك.

-حاملو أعلام الباي: عددهم سبعة، ويقودهم "باش علام"

-الموسيقيون: يقودهم "باش غيّا" وله تحت تصرفه "باش زرناجي" ويوجد من بينهم رئيس الأبواق، و"باش عولجي" وقائد الطبالين؛ وقيل أن للباي سبعة طبول وغوايط²⁰

-الباش سايس: وهو المكلف بخيول البايك وتربيتها، ويجهز حصان الباي عند سفره.

-رئيس الطباخين: ويدعى "اشجي باشي"، وهناك طبّاخ القهوة.

-قائد الطامة: وهو حامل الاواني التي يستعملها الباي في سفره.

-قايد الطابع: وهو المكلف بأمور الطابع.

اضافة إلى العديد من الموظفين مثل قائد الجنان، وقاطع الرأس بأمر الباي ويقال له "طزير" ومتولي سلا ق الباي ويقال له قائد السلاق، والحلاق، وإمام مسجد القصر وغيرهم²¹

4- المدينة والريف ببايلك الغرب الجزائري:

مهما كانت نوعية المدينة فهي لها علاقات بما يحيط بها من ضواحي، بل عبر هذه الضواحي يتجسد الجانب التطبيقي لوظائف المدينة²² فالعلاقات التي

سادت بين المدينة والريف ببايلك الغرب الجزائري خلال القرن 18 لم تكن على مستوى الإنتاج الزراعي أو الحيواني أو الصناعي بل حددتها كذلك تنقلات الأشخاص، فالمدينة لم تستقبل فقط إنتاجا ريفيا أو صدرت إنتاجا حضريا بل رافق ذلك حركات تنقل على مستوى الأشخاص بين الطرفين وكان لهذا العامل تأثيرات عديدة على مختلف الجوانب الاقتصادية والاجتماعية والثقافية.

لقد كان للتجار دورا كبيرا في عملية الاتصال بين المدينة والريف حيث يقومون بشراء منتوجات الريف من اجل تزويد المدن كما يمولون الريف بالمواد الضرورية المنتجة في المدن او القادمة من الخارج، فالتجار مارسوا سيطرتهم على الأسواق المحلية بصفة عامة²³ لكن الشيء المؤكد أن هذه العلاقة كانت متينة حتى في فترات الانكماش والانتعاش الاقتصادي وبذلك ظلت الزراعة والصناعة والتجارة من أهم العوامل المتحركة فيها.

إن موقع مدن بايلك الغرب الجزائري مهما تنوع واختلف الا اننا لاحظنا العديد من التشابهات إضافة إلى توفر كل واحدة على عوامل اساسية جعلت ادوارها السياسية والاقتصادية والثقافية اكثر فعالية واهمية وتفرض هيمنتها على الريف، ويمكن ان نلمس هذه الاهمية بالنسبة لكل مدينة على النحو الآتي:

تلمسان: تقع تلمسان في اقصى بايلك الغرب، شكل موقعها عبر العصور موقعا ملائما وممتازا ووضعها الطبوغرافي جعل منها منطقة ثرية ومزدهرة²⁴، حيث ساهم في الربط بين الصحراء والبحر كما شكل نقطة التقاء وعبور لاهم الطرق، تلك التي تأتي من الجنوب متوجهة نحو الشمال عابرة الموانئ الاربعة للبايلك هنين ورشقون والغزوات والمرسى الكبير اضافة الى الطريق الهام الذي يمثل محور الشرق والغرب.

إن الموقع الطبيعي لتلمسان إضافة إلى وفرة المياه والخصوبة جعلها مخزنا للسلع بالنسبة لبائلك الغرب ولجنوب غرب إفريقيا منذ أزمنة طويلة ومستقرا للتجمعات البشرية وقد انعكس ذلك إيجابا عليها بوجود المساجد كالمسجد الكبير وهو أكبر بناية تقابله سوق القيصرية إضافة إلى المكتبة وشرق المسجد يوجد بيت البايك²⁵، إضافة إلى مؤسسات حضرية أخرى تعتبر ضرورية لمركز المدينة منها الحمامات والفنادق حيث كان يوجد بها فندقان وحمامان.

ان كل من تناول تلمسان بالوصف يصفها بفخر واعتزاز كما انها تميزت بانتشار العلوم والفنون ومثلت المدينة الاسلامية الواضحة الوظائف والفئات الاجتماعية²⁶، فشهرة تلمسان تجاوزت حدود الايالة فتميزت باهمية تنظيم طرقها وسوقها حيث كلن هذا التنظيم مشابها لما هو عليه في مدينة فاس.

مازونة: تقع مازونة في منطقة جبال الظهرة على مفترق ممرات ذات اهمية استراتيجية واقتصادية، تشرف من الجنوب الغربي على سهول وادي ارهيو ومن الجنوب الشرقي على سهول الشلف الأكثر رطوبة ومتاخمة للسهول الوهرانية؛ ان هذا الموقع جعل من المدينة نقطة عبور بين المغرب وتونس مروراً بعدة مدن، اضافة الى موقعها بالقرب من سهول مينة التي تؤدي بسهولة إلى منطقة السهول العليا، عرفت بمسجدها الكبير ومدرستها الشهيرة إضافة إلى السوق حيث انه فضلا عن وظيفته الاقتصادية كان مركزا للحياة الثقافية والدينية والإدارية²⁷، هذا الموقع يشرح لنا الدور الذي لعبته هذه المدينة ضف إلى ذلك أن جبال الظهرة التي هي جزء من السلسلة التلية التي تمتد على منطقة شاسعة تتشكل من كتل جبلية تمتد من زكار إلى غاية مصب وادي الشلف؛ في هذه المنطقة تحتل مازونة مكانة هامة تتربع على حافة وادي وارزان رافد من روافد وادي الشلف تحيط بها بساتين وحدائق جد خلاصة تفسر لنا ثراء غطائها النباتي²⁸.

لقد استمرت مازونة عاصمة للبايلك من سنة 1563 الى غاية 1700 وخلال هذه المرحلة عرفت انتعاشا اقتصاديا وثقافيا هاما، حيث ان دورها الثقافي على مستوى البايلك والمغرب العربي كانت له انعكاسات هامة وتأثيرات كبيرة، هذا الاشعاع الثقافي يعكس ازدهارا ونموا اقتصاديا وبروز فئات اجتماعية كان لها دور فعال في تنشيط الحياة الاقتصادية والنهوض بالحياة الثقافية، كما عرفت في القرن الثامن عشر ازدهارا انعكس ذلك في بروز المنشآت العمرانية كالقصور والمنازل الجميلة والاسوار²⁹، واحترف جل سكانها الصناعة والزراعة فهذه الانشطة جعلت المدينة ذات حياة اقتصادية مزدهرة ونشيطة.

مستغانم: ان الطبيعة منحت مستغانم موقعا من الدرجة الاولى، فهي تقع في منطقة محمية من البحر الابيض المتوسط من الجهة الغربية، يخترقها وادي عين الصفراء و يصب في البحر شرق المدينة نهر الشلف تحيط بها بساتين واحواز خصبة³⁰.

لقد كانت المدينة ذات اهمية لكونها تشرف على تركز وجمع تجارة كل من سهلي شلف ومينة، كما تعتبر المدينة الثانية على مستوى البايلك من حيث الاهمية بعد مدينة تلمسان³¹ اضافة الى ذلك تعتبر مدينة مستغانم مركزا ثقافيا من الطراز الأول أما ميزاتها التجارية فهي ناجمة عن إطارها الإقليمي فاحتلال الأسبان لوهران والمرسى الكبير جعل من مينائها معروفا بحركته النشيطة لكونه منفذا على الخارج لمدن مثل معسكر ومستغانم ومناطق واسعة.

لقد اعطى مجئ الأندلسيين مع مطلع القرن 16 واستقرارهم بمدينة مستغانم وضواحيها انتعاشا لنموها الاقتصادي والديموغرافي، كما ان احتلال الاسبان لوهران والمرسى الكبير جعل من مدينة مستغانم قاعدة هامة لمحاربة الاسبان كما جعل منها الباي بوشلاغم عاصمته من 1732 الى غاية 1738 أي

تاريخ عودة مقر البايك إلى معسكر بعد وفاة الباي بوشلاغم الذي كانت له وعائلته والباي مصطفى الأحمر المسراي والباي محمد الكبير أوقافا واحباس هامة بالمدينة³².

معسكر: تتوسط اعراشا واحوازا هامة، تقع المدينة على حافة سلسلة جبال بني شقران حيث توجد معسكر جنوبها كما تحيط بها سهول غريس التي تعد من اخصب سهول الجزائر³³ زادت اهمية معسكر اثناء العهد العثماني حيث اصبحت السيطرة عليها ضرورية لتأمين المواصلات بين تلمسان وقلعة بني راشد وهذا ما جعل الاتراك يبقون بها بها حامية عسكرية وقيمون عليها حاكما وذلك اثر تنظيم البايك سنة 1563³⁴، وقد شكلت مركزا مهما على الطريق الرئيسي بين قلعة بني راشد وتلمسان مما جعلها سوقا للمنتوجات القادمة من السودان ومستودعا لبضائع فاس وملتقى لتجارة الغرب الجزائري ومحطة للعشائر الكبرى بالناحية كيني عامر والحشم والشرافة وبني شقران³⁵

تتوسط معسكر منطقة تتميز بثرائها الزراعي والصناعي ففي قلعة بني راشد كانت تصنع الأسلحة النارية والصابون والسروج والزراي الحمراء والبرانيس حيث يباع البرنس الواحد بمائة فرنك حتى اصبحت الفرنسيون من هواثها عشية الاحتلال³⁶ وكانت تصدر هذه المنتوجات إلى النواحي والدول المجاورة لها عن طريق معسكر، وقد عرفت قبائل بني راشد بتقربها من الحكم

لقد بلغت معسكر اوج قوتها وعظمتها عندما انتقل مقر البايك من مازونة إليها سنة 1701 حيث عرفت أيام الباي مصطفى بوشلاغم انتعاشا اقتصاديا وازدهرت أنشطتها الحرفية والتجارية وبرز دورها الثقافي، وعرفت ازهي أيامها تحت حكم الباي محمد الكبير الذي مكث بها ما بين 1779 إلى 1792 وأقام بها المدارس والمساجد وشيد بها المرافق العامة وقصدها العلماء ونزل عليها الطلبة للدراسة في معاهدها العليا للتلمذ على أساتذتها³⁷

لقد تمتعت جل مدن بايلك الغرب الجزائري بموقع هام وأحاط بها احواز جد هامة وتوفرت بها المياه ، وهذه عوامل رئيسية أدت إلى تطور الحياة الحضارية مقارنة بالريف؛ ومن جهة أخرى فقد شكل الإطار التاريخي لجل هذه المدن إطارا ثريا وغنيا بتطوراته وأحداثه، فجلها عرفت عبر فترات مختلفة من تاريخها كعواصم سياسية واشتهرت كمراكز تجارية وحرفية وثقافية وغالبا ما تجاوزت حدود البلاد.

لقد استفادت مدن بايلك الغرب الجزائري من تراث حضاري وتلك ميزة تميزت بها جل الحواضر العربية الإسلامية حيث استفادت من التراث الحضاري الذي سبق هذه المرحلة التاريخية اي القرن الثامن عشر، ومنها ما يعود الى الآثار الرومانية او الإغريقية او الفينيقية وهذا يعني ان معظمها استفادت من الحضارات السابقة، فالنواة الأولى لهذه الحواضر كبقية الحواضر الأخرى العربية الإسلامية فكانت ذات طبيعة ومستويات مختلفة إضافة إلى عوامل أخرى مناخية وعرقية ودينية³⁸ .

فالعامل التاريخي قوي وعميق في القدم ونتيجة لهذا الثقل الحضاري استطاعت المدينة ببائلك الغرب الجزائري ان تفرض هيمنتها علي الريف، ففي البداية كانت نوعا من الهيمنة المباشرة عن طريق مراقبة الفحوص والاحواز بطرق متعددة سواء عبر الملكية العقارية للحضرين في أرياف مدن تلمسان ومازونة ومستغانم ومعسكر او بطريقة غير مباشرة وتتجلى في نشاط التجار والأسواق التي كانت تقام خارج المدن، فالسوق كان وسيلة لمراقبة سكان الأرياف ومنعهم من التحالف ضد الحكم العثماني؛ أما الهيمنة الثالثة تأتي عن طريق الهيمنة السياسية والتي كانت تضم كل الايالة³⁹

كما شكل الإنتاج الريفي المصدر الأساسي خلال القرن الثامن عشر لضمان مداخيل وقوة الطبقة الحاكمة في المدن في ظل تراجع مداخيل البحر، فالريف كان أساس ثروة البلاد على حد تعبير حمدان خوجة⁴⁰ فاستغلال

العمل الريفي كان يتحقق عن طريق الضغط الضريبي واستغلال اليد العاملة أثناء الحاجة وبالتالي كان هذا يحمل في طياته علاقة غير متكافئة ولا عادلة⁴¹ وفي بعض الأحيان كان يفتح المجال لسكان الأرياف لانجاز مشاريع في المدينة مثل ما هو الحال بالنسبة لقادة المخزن، ونذكر هنا ان طبقة العامة في المدن قد غذاها توافد المجموعات القادمة من الريف وقد لعبت دورا هاما في تنمية العامل الديمغرافي وذلك بتغذية المدينة بالقوة البشرية.

لقد تآثر الريف مباشرة بكل التغيرات والتقلبات التي عرفتها المدينة في بايلك الغرب الجزائري عبر مراحلها التاريخية، حيث ان كثيرا ما ينتعش الريف نتيجة انتعاش المدينة والعكس صحيح، كما شكلت المدينة منفذا على الخارج لمنتجات الريف حيث كانت الجامعة والموزعة له سواءا عن طريق اسواقها او موانئها او طرقها التجارية او عن طريق الاحتكاك بالاجانب الذين كانوا يقصدونها؛ وهنا يمكن ان نستنتج الاهمية التي اكتسبتها حواضر بايلك الغرب الجزائري ممثلة في مازونة ومستغانم وندرومة وتلمسان ومعسكر

ان المدينة في بايلك الغرب الجزائري خلال القرن الثامن عشر شكلت جهازا اقتصاديا واجتماعيا وسياسيا لنمو الريف؛ لكن جهاز استغلالي لثرواته وظيفي على حساب الريف، حيث عرفت هذه الفترة التاريخية بتراجع مداخيل البحر نتيجة تطور سفن الدول الاوروبية وعندها حتما ستلجأ المدينة الى الريف لتعويض هذا النقص في المداخيل وبذلك ستعرف الضرائب ارتفاعا ملحوظا لتعويض هذا الفراغ⁴¹

لقد مارست المدينة سلطتها السياسية على الريف في اطار جمع الثروة فكان البايات لا يكثرثون بتقاليد رعاياهم وعاداتهم ماداموا يدفعون الضرائب ولا يعترضون سبيل جيوشهم⁴² اضافة الى هذا نجد تأثير الضرائب في رؤية سكان الارياض للمدن حيث طبعها النفور والكراهة؛ فلما دخل الفرنسيون

مدينة وهران فر سكانها وانتشروا في الاماكن الريفية فلقبهم اهل البادية وسدوا عليهم الطرقات ونهبوا ما عندهم من اموال وامتعة، كما ان نظرة قبائل المخزن للسكان كانت مغايرة تماما بسبب نظرة الاستعلاء التي كانت لدى هذه القبائل على ماسواها من القبائل الاخرى والتي تعتبرها في غير مستواها وكان هذا النفور متبادلا بينها وبين قبائل الرعية.

إن دور المراقبة الذي كانت تقوم به الدولة على مستوي البايك اعطى لارستقراطية العسكرية والتجارية التي كانت تعيش في المدينة قوة وسندا كبيرا لاستغلال الريف سواء عن طريق الضرائب او عن طريق الحرفيين والتجارن فرؤوس اموال هؤلاء كانت توظف خارج اسوار المدن في الاماكن البعيدة وهذا ما سمح لها بامتلاك ممتلكات عقارية في الاحواز والارياف وهذا كان عملية ضرورية لطبقة البرجوازية⁴³، فمدن بايلك الغرب الجزائري تقع معظمها في قلب فحوص تتوفر على الشروط الطبيعية خاصة امكانية السقي التي تشكل العنصر الاساسي في الملك العقاري لارستقراطي المدن وهذا مايجعلنا نستنتج ان حواضر البايك كانت تتوسط اريافا ذات مردود زراعي ورعوي هام وذلك نتيجة توفر عنصر الماء واحتوائها على سهول خصبة كسهول سيدي بلعباس ومعسكر وسهل سرسو وهذا يجعلنا ننظر الى هذه العلاقة بانها علاقة الأكل والمأكول على حد تعبير استرهازى⁴⁴

إن توغل نفوذ ارستقراطية مدن بايلك الغرب الجزائري في اريافه لم يكن يوما من الأيام ثابتا على حال واحدة وانما كان يتوسع كلما قويت شوكة الحكومة وزاد نفوذ الحكام واذغن الاهالى للرضوخ والطاعة ويتقلص كلما كثرت الثورات وشاعت الفوضى ؛ على أن هذه الظاهرة شاركت فيها الجزائر بقية أقطار المغرب العربي ولا سيما المغرب الأقصى بحيث أصبح تاريخ هذه الأقطار عبارة عن العلاقة بين المناطق التي يسود فيها نفوذ الدولة وبين المناطق المستعصية على سلطة الحكام التي كانت عادة تسمى ببلاد السبية أو

ارض الخلاء والبارود، وانطلاقاً من ذلك أصبحت قبائل المخزن طبقة وسطى في الأرياف تماثل طبقة الكراغلة في المدن وذلك باعتبارها طائفة اجتماعية تشد الحاكم بالمحكوم وتخدم مصالح الجماعة التركية الحاكمة على حساب سكان الأرياف⁴⁵، أما ابن خلدون فقد أكد في القرن 14 عن وجود علاقات التبعية بين المدينة والريف على المستوى العقاري والتجاري والسياسي والديني⁴⁶، فتمت زاد العمران في المدينة زادت النشاطات والكسب والعوائد وهذه الحالة تتوافق مع عهد الباي محمد الكبير حيث ان المشاريع العمرانية التي قام بها والازدهار التي عرفته مرحلة حكمه لبائلك الغرب الجزائري انعكست ايجاباً على المدينة والريف⁴⁷ فثراء المدينة واستقرارها يساهم في مد الريف بما هو ضروري وما كان يؤخذ من الريف كضرائب كان يعود عليهم في شكل سلع ومواد مختلفة أي أن أموال الجباية ذاهبة عنهم عائدة إليهم في العطاء على حد تعبير ابن خلدون⁴⁸.

الا ان الملاحظ حول العلاقة التي سادت بين المدينة والريف ببائلك الغرب الجزائري، ان الارياف لم تستفيد من الجانب العمراني الذي كان سائداً في المدن، الا ان قبائل المخزن كانت عاملاً مساعداً على الحد من الحياة البدوية والانتقال التدريجي من الترحال الى الاستقرار في الارض؛ هذا الاستقرار الذي حدث على ثلاث مراحل متعاقبة فالمرحلة الاولى عاش اثناءها فرسان المخزن تحت الخيام يمارسون زراعة بسيطة ويربون الماشية بسهولة وهران وغريس وبعض الجهات من الهضاب العليا وفي المرحلة الثانية أصبحت بعض العشائر تعيش على نشاط اقتصادي متكامل ترتبط فيه الزراعة بتربية الماشية ورافق هذا التحول العزوف عن سكنى الخيام والميول نحو القرابي المصنوعة من الطين والمغطاة من الأخشاب وغصون الأشجار، أما المرحلة الثالثة والتي لم تعرفها سوى بعض العشائر المخزنية فقد اتخذ فيها الاستقرار في شكل تجمعات سكانية عرفت بالدواوين أو المشاتي القريبة من أبراج وحصون

الحراسة والمراقبة التي كانت في الغالب تتوسط الأراضي الخصبة والمراعي
المشاعة⁴⁹

ان علاقة المدينة بريف بايلك الغرب الجزائري تعززت وتدعمت
وتكاملت بصفة استثنائية خلال القرن الثامن عشر وذلك نتيجة ندرة
مداخيل البحر فاصبح الريف الممون الرئيسي للمدينة فالنشاطات الاقتصادية
توزعت على محورين أساسيين هما: محور سكان المدن وامتيازاتهم ومكاسبهم
على أنها ذات طابع إداري ومهني وعرقي ومحور الريف المزارعون والرعاة
إضافة إلى بدو الصحراء الرحل، بينما شكل سكان الأرياف الأغلبية والقوة
الاقتصادية المغلوبة على أمرها فهم إما يستخدمون في أعمال السخرة أو
الخماسة⁵⁰.

لقد كان الريف ينتج للمدينة قوتها ويحرك أسواقها بدون أن تقدم له
المدينة شيئا ومع ذلك كان الريف مرغما على دفع الضرائب ولا يقف معهم
احد اذا أصابتهم كارثة طبيعية كقلة الأمطار أو الأوبئة، لذلك اكتفى
العثمانيون بالإشراف المباشر على الأرياف وإعطاء للأعيان والموظفين المحليين
المتعاملين مع السكان صلاحيات محدودة خاضعة لتوجيهاتهم

احتلت المدينة مجالا مميزا عن المجال الريفي فكانت العلاقة الموجودة بين
هذين المجالين تتوقف على علاقات الإنتاج وتقسيم العمل داخل المجتمع وقد
شملت جوانب مختلفة من الحياة توجهها في حالات انكماشها وانتعاشها عملية
توزيع الخيرات وفي هذا الصدد؛ فان من التأثيرات السلبية لتواجد عشائر
المخزن أنها أثرت على توزيع الكثافة السكانية بالريف حيث استولت على
الأراضي الخصبة بالمناطق السهلية وقد تسبب ذلك في إحداث ضغط على
بقية السكان مما اضطر الكثير منهم الى الالتجاء الى المناطق الجبلية او السهول
الفقيرة وهذا مادي إلى تراجع الانتاج الزراعي، ضف الى ذلك ان هذا

التدخل في التوزيع السكاني سيكون له اثر واضح على مستقبل الجزائر لانه ساعد على ايجاد فراغ نسبي امام التوسع الاستيطاني الفرنسي الذي بادر بالاستيلاء على وهران ومعسكر بحجة ان هذه المناطق لم يكن بها تجمعات سكانية كثيفة⁵¹

خاتمة:

نستخلص مما تقدم مجموعة من النتائج يمكن تلخيصها في النقاط الآتية:

* لقد كان الجهاز الاداري لبائلك الغرب منظما الى عدد كبير من القبائل التابعة لشيوخها وكل مجموعة من القبائل تشكل وطنا يحكمه قائد ومجموعة من القيادات تشكل اغاليك ومجموعة اغاليك يحكمها باشا او خليفة.

* كان لبائلك الغرب نظام داخلي خاص وترتيب ادارية تمثلت في العديد من الوظائف، تلك الوظائف كانت تتداخل فيها سلطات الموظفين بعضها في بعض فهناك الموظفون القريبون من الباي وهناك الموظفون القائمون على شؤون المدن، والموظفون القائمون على شؤون الأرياف.

* ان سياسة الحكام كانت تعتمد أساسا على استمالة القوى الدينية وجعلهم واسطة بينهم وبين الرعية واعتمدوا على القبائل المخزنية وقد مكنتهم هذه السياسة من التحكم على جزء كبير من البلاد.

* ان الفراغ السياسي الذي عرفته الأرياف ببائلك الغرب خلال الفترة العثمانية جعل المدينة تفرض سيطرتها عليه في حين كان الريف ينتج للمدينة قوتها ويحرك أسواقها.

الإحالات:

- 1- حكم الجزائر ثلاث مرات الأولى ما بين 1540-1552 والثانية ما بين 1557-1561 والثالثة ما بين 1562-1567.
- 2- Robert, tintoin, l'oranie sa geographie son histoire ces centres vitaux, fouqué, oran, 1952, p : 35.
- 3- Louis, rinn, «le royaume d'alger », in R.A, N°43, 1899, p : 60.
- 4 - Josephe de, aramburu, oran et l'ouest algerien au 18^e siecle (presentation et traduction De korso et epalsa), BN, Alger, 1978, p : 09.
- 5- Walsin, esterhazy, de la domination turque dans l'ancienne regence d'Alger, libraire Charle gosslin Paris, 1840, p : 164.
- 6- Ibid, p : 165.
- 7- محمد بن يوسف، الزياتي، دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران (تقديم وتعليق: المهدي البوعبدلي)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1978، ص 190.
- 8- نفسه، ص 189.
- 9- كانت قبيلتي اولاد هلال وأولاد عنتر شمال بوغار (المدية) تابعتين لقائد جندل.
- 10- بن عودة، المزارى، طلع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر واسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر (تحقيق: يحي بوعزيز)، الجزء 1، ط 1، دار الغرب الاسلامي، بيروت، 1990، ص 274.
- 11- Camille, kehl, « Oran et l'oranie avant l'occupation francaise », in B. S. G. A.O , N°63 , p34.
- 12- محمد بن يوسف الزياتي، المصدر السابق، ص 191.
- 13- Thomas, shaw, voyage dans la regence d'Alger (traduction : J.mac carthy), 2eme edition, editions Bouslama, tunis, 1980, p221.
- 14- Marcel, colombe, l'algerie turque, maisonneuve, paris, 1957, p : 116.
- 15 - Ibid, p : 246.

- 16- بن عتو، بلبروات، المدينة والريف بالجزائر في أواخر العهد العثماني، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة وهران، 2007-2008، ص 293.
- 17- Walsin, esterhazy, op.cit, p :247.
- 18- Ibid , p :246 .
- 19- Ibid, p :246 .
- 20 -Ibid, p:247.
- 21- Claude, bontems, les institutions algerienne sous la domination turque, faculte de droit, alger, 1970, p :29.
- 22- Beaujeu, Garnier Jacqueline, geographie urbaine, armand colin, paris , 1980, p :299.
- 23- رؤوف ،عبد السلام، الملامح الاقتصادية لنظام الأصناف في العراق إبان العصر العثماني، منشورات مركز الدراسات والبحوث عن الولايات العربية في العهد العثماني، العراق، 1986 ، ص 457
- 24- حمدان بن عثمان، خوجة، المرأة(تقديم وتعريب وتحقيق: محمد العربي الزبيري)، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 2006 ، ص 57.
- 25- Andre, Cocq, histoire de tlemcen ville francaise, edition internationale, tanger, 1940, p:238.
- 26- Laugier , De tassy, histoire du royaume d'alger (preface Noël Laveau Andre Nouschi), edition Loysel Paris, 1992, p123,
- 27- Djilali, Sari, les villes precoloniales de l'algerie occidentale, Nedroma, mazouna, kalaa, sned, alger, 1970, p.51.
- 28 -Moulay, Belhamissi, mazouna une petite ville une longue histoire, S.N.E.D , alger, 1982, p.13
- 29- Ibid, p : 43
- 30- Thomas, Shaw, op.cit, p :236.
- 31- Moulay, Belhamissi, histoire de mostaganem, centre national des études historique, alger, 1976, p :34.
- 32- Ibid, p : 34.
- 33- Louis de, Baudicour, histoire de la colonisation de l'algerie, challamel, paris, 1830, p : 191.

- 34- ناصر الدين، سعيدوني، دراسات وابحاث في تاريخ الجزائر(العهد العثماني)، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984 ، ص 247.
- 35- نفسه، ص 248.
- 36- حمدان بن عثمان، خوجة، المصدر السابق، ص 59.
- 37- المرجع السابق، ص 248.
- 38- Gaoud, Msefer, villes islamiques cites d'hier et d'aujourd'hui, la plume, tunis, 1984, p : 15.
- 39- René, Galissot, « le maghreb precolonial », in la pensée, n 142, 1968, p : 69.
- 38- حمدان بن عثمان، خوجة، المصدر السابق، ص 37.
- 39- ناصر الدين، سعيدوني، «وضعية عشائر المخزن الاجتماعية والاثار التي ترتبت عليها»، المجلة التاريخية المغربية، العدد 07-08، تونس، 1977، ص 19
- 40- Henri-Delmas, De grammond, histoire d'Alger sous la domination turque 1515-1830 (présenté Lemnouar merouche), édition bouchene, paris, 2001, p :23.
- 41- شارل، اندري جوليان، تاريخ افريقيا الشمالية:تونس، الجزائر، المغرب الاقصى من الفتح الاسلامي الى سنة 1830(تعريب: محمد مزالي وآخرون)، ط 02 ، ج 02 ،الدار التونسية للنشر، تونس، 1985 ص 378.
- 42- Jacque, Berque, «medinas, villeneuves et bidonvilles », in C.T , n° 21, 1958, p :11.
- 43- Walsin, Esterhazy, op.cit, p :235.
- 44- ناصر الدين، سعيدوني، «وضعية عشائر.....»، المرجع السابق، ص 76.
- 45- عبد الرحمن، ابن خلدون، المقدمة، ج2، الدار التونسية للنشر، تونس، 1984، ص 436.
- 46- André, gourguos, « notice sur le bey d'oran mohammed el kebir », in R.A, n°01, 1856, p :408.
- 47- المصدر السابق، ص 448.
- 48- ناصر الدين، سعيدوني، «وضعية عشائر المخزن...»، المرجع السابق، ص 76

- 49- ناصر الدين ، سعيدوي، « نظرة في التاريخ الاقتصادي للجزائر في العهد العثماني»،
مجلة سرتا، العدد 03 ، الجزائر، 1980، ص 79.
- 50- عمر، بن خروف، «العلاقات الخارجية للجزائر في العهد العثماني سياسيا واقتصاديا
وثقافيا»، عرض بحث قدم في ندوة المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية
وثورة اول نوفمبر 1954 ، الجزائر، يوم الثلاثاء 2002/05/28.
- 51- ناصر الدين، سعيدوي، «وضعية عشائر المخزن...»، المرجع السابق، ص 74.